وحدة اللغة . فهي تحافظ منذ البداية على لغة التشابيه الغريبة . اداة الوصف هو التشبيه منذ بداية الكتاب . ثم يتصاعد هذا التشبيه بشكل مفاجيء امام وصف الكوابيس الجنونية التي يعيشها فرح . فندخل الحلم ، ولا نخرج منه . وحدة التشابيه هي وحدة خارجية . فالجملة القصصية تحافظ على ثوابتها . اي انها تبقى استتباعات تطورية من نمط واضح ، رغم ان التطور يكسر ولا يستكمل عناصره . داخل عنصر اللغة نفسه تحاول الرواية خلق وحدتها بطريق آخر . ففي عدد من المقاطع المتتابعة ، تستعمل المؤلفة نفس الجملة الاولى ، التي تصف مظاهر الطبيعة ، لتجعلها اطارا لحركات الابطال المتوازية. « انفجر الرعد كصرخة تهديد غامضة ... » لكن هذا الافتتاح الموحد لمقاطع مختلفة ، لا يوحد الا بمقدار ما يمت بصلة الى المكان . لكن اداة التشبيه في « كصرخة تهديد » تقود الى وحدة الحالة النفسية التي تقود مختلف شخصيات الرواية . هنا لا وجود للوحدة النفسية الا بالمعنى السلبي ، بمعنى التعرض لقمع البرجوازية الوحشي . لكن التعدد الكبير لاشكال هذا القمع ، تجعله غير مكشوف في النهاية . فما هي عناصر وحدته ؟ الاحتكار ، التخلف ، الكبت الجنسي ، الفقر ، العلاقات العشائرية ، السلطة السياسية ... نستطيع ان نسترسل في رصف هذه العناصر خلف بعضها دون ان نصل الى لحظة وحدة زمن الكتابة. تتساقط الرواية كبناء ونبقى أمام لغة غادة السمان في القصة القصيرة . فنحن امام مجموعة من القصص القصيرة ، التي لا تتوحد الا من خارجها ، المكان ، وتقدم مجرد صرخة احتجاج على القمع.

في خاتمة روايتها ، تقدم السمان ، العديد من اللوحات الكابوسية . هذه الكوابيس موحدة ، متوترة ، مليئة بالتحدي ، رغم ان بعض صورها يذكرنا بأشياء نعرفها أو شاهدناها . لكنها محاولات أصيلة للكتابة التي تتجاوز المألوف ، وتكشف الحقيقة وكأنها ليست سوى احلام مجنون رغم اننا لا نشهد تطور « مطرب الرجولة » الى الجنون ، لكننا داخل جنونه نفهم عصر البرجوازية المتوحشة. « بعد ان أنهت كأسها ، أمسكت « الشاليمو » وفي بساطة أدخلت « الشاليمو » في شرياني بدلا من الكأس ، وبدأت تمتص دمي ... » هذه هي بداية ممكنة للرواية . كان يجب ان تبدأ هذه الرواية من نهايتها ، عندها ما كانت بحاجة الى التقطيع الطباعي، حرف أسود،للتميز بين السرد والتداعيات الخاصة بالشخصيات . وكان زمن الكتابة قد استطاع أن يكتشف موحداته .

— ٤ —

في روايته الثالثة « شرق المتوسط » ، يقدم عبد الرحمن منيف لوحة للقمع المباشر . فاذا كانت « بيروت ٧٥ » ، قد حاولت ان تقدم وصفا للقمع غير المباشر ، قمع العلاقات الاجتماعية نفسها ، فاننا هنا ، امام دائرة مغلقة . السجن هو الاطار الوحيد الذي تتحرك داخله الشخصيات الرئيسية في رواية منيف . رجب في السجن ، ووالدته واخته وحامد زوج اخته خارجه . لكنهم جميعا يعيشون داخل السجن . ليس بالمعنى الاجتماعي ، اي ليس لان القمع في الخارج هو اساس قمع السجن ، بل بالمعنى النفسي ، لان قمع السجن ، ينعكس على بقية أبطال الرواية ، فيصبحون جميعا ضحاياه.

تتحرك الرواية في اطارين : السرد والتداعي . وتجري على لسانين : رجب وشقيقته أنيسة . رجب يصف عذابات السجن من خلال تداعيات الباخرة التي تقله الى أوروبا للعلاج ، بعد انهياره . وأنيسة تصف عذاباتها وعذابات أمها من خلال تداعيات العلاقة القصيرة برجب بعد خروجه او في سفره عبر الرسائل ، ومن خلال المشاكل التي يواجهها حامد بصفته كفيل رجب . الرواية تدور في عالم الذكريات . والذكريات هنا هي من طبيعة نفسية فردية . انها تقدم نموذجا . رجب المناضل الذي يعتقل في مكان ما من « هذه الارض الغبراء ». تحاول ان تستقصي تفاصيل نفسيته ، بوصفها انعكاسا لشروط قمع عامة ، فنتعرف على نوازعه ومشاكله واحلامه ، بلغة تقترب من اللغة الرومانسية . وكانعكاس لحال رجب النموذج ، نتعرف على شخصيتي أمه وشقيقته . أمه هي أيضا أم نموذجية . تموت لانهم قتلوها حين سحقوا ابنها في عذابات السجن . ولكي تقدم الرواية صورة واضحة عما تريد قوله ، تسترسل في وصف تفصيلي لحالة السجناء من خلال ثلاث دوائر :

١ — الدائرة الاولى ، هي دائرة السجناء . في داخل السجن تكشف الرواية عن نمط العلاقات